

أفريقيا ملعب أميركي

عن القلق الأميركي من التمدد الصيني في القارة السمراء، إضافة إلى دور الإدارات الأميركية المتعاقبة في تسليح بعض الأطراف في المناطق الساخنة، ولا سيما السودان عبر تسهيل إمرار الأسلحة إلى حكومة الجنوب، وتلقيها طلباً من الحكومة الانتقالية في الصومال للتدخل المباشر وقصف مواقع الإسلاميين

قصة «روبن هود» العالم الرقمي

صباح أيوب

«خارج عن المألوف»، لعلّه الوصف المناسب الذي يمكن أن يطلق على مسار حياة الأسترالي جولييان أسانج منذ ولادته عام 1971 حتى كتابة هذه السطور. جولييان الطفل الذي عاش كشخصية «توم سويار» (في رواية للكاتب مارك توين)، كما يقول، كان يملك حصاناً، يلهو في البرية، يبني كوخه الخاص، يحفر الأنفاق تحت الأرض، يذهب للصيد، ينتقل من مدرسة إلى أخرى، وأحياناً يتلقى تعليمه في البيت... حياة والدته المتقلبة بين زواجين وإنجابين (جولييان هو البكر) واضطرابها إلى التنقل بين مناطق عدة ومنازل مختلفة، أثرت على شخصية وحياة أسانج الذي سجل وعيه باكراً ملاحظات ويوميات مليئة بالأحداث والمفاجآت والاختبارات.

تربية أسانج كانت متحررة من كل ما يمكن أن يخضع له الأطفال من قيود قد تحد من انطلاقهم ونمو تفكيرهم ومخيلتهم. والسدة أسانج، التي بدورها أحرقت كتبها المدرسية في سن السابعة عشرة وهربت من المنزل على دراجة نارية، رفضت أن يعيش ولدها حياة نمطية تقمع شخصيته وتحدها. وفي وثيقة صادرة عن السفارة الأميركية في نيروبي (كينيا) بتاريخ 28 أيار 2009، تحدث رئيس الوزراء الصومالي في حينه، عمر شارماركي، عن تحقيق قواته بعض التقدم في مواجهة المسلحين، لافتاً إلى أن اعتماد المتمردين على مقاتلين أجانب كلفهم تراجعاً في الدعم داخل الصومال.

ووفقاً للوثيقة، انضم شارماركي إلى مسؤولين صوماليين آخرين في «ادعاء تورط عدد كبير من الأجانب في جهود حركة الشباب». وأشار إلى أن «جنرالات باكستانياً يتولى تنسيق الهجمات على قوات الحكومة الانتقالية في مقديشو». كما اتهم قيادياً في تنظيم «القاعدة»، سماه «الليبي»، بالعمل ضد الحكومة الانتقالية.

وبيّنت وثيقة ثانية، بتاريخ 26 آب 2009، أن العديد من المقاتلين الأجانب الذين ينشطون في الصومال، والذين دخلوا لمحاربة الإثيوبيين خلال الفترة الممتدة ما بين 2006 و2008، هم من أصول صومالية. ولفتت الوثيقة إلى اعتقاد أميركي بأن تجنيدهم حصل، إما في البلدان المجاورة للصومال، أو في بلدان الشتات البعيدة بدافع الشعور بالوطنية الصومالية والدعاية الجهادية، ووجود القوات الأجنبية في البلاد. ومن هذه البلدان، برزت أميركا الشمالية والدول الأوروبية، بالإضافة إلى شرق أفريقيا وعلى الأخص كينيا والسودان.



أسانج خلال مؤتمر صحفي في جنيف الشهر الماضي (مارتيا تريزيني - أ ب)

تميز الخطأ من الصواب، والمدافع عن رفاقه المظلومين». وعند بلوغه الرابعة عشرة، كان أسانج قد غير مكان سكنه 37 مرة. حاول متابعة دراسته بالمراسلة أو من خلال تعليم حرّ عند بعض أساتذة الجامعات، لكنه ابتعد عن انتهاج الخط الكلاسيكي بارتداء جامعة أو معهد ثم التخرج منه، وحمل شهادة في أحد الاختصاصات. عوضاً عن ذلك،

ملأ أسانج وقته بالتردد إلى المكتبات العامة والقراءة. استهوته العلوم وراح يحفظ ما يقرأه من معلومات، قبل أن يتقن كيفية قراءتها حتى. وفي بداية مراهقته، عاش الشاب فترة من الاستقرار في منزل مع والدته بجوار محل للإلكترونيات. تردد جولييان إلى المحل حيث كان يعمل على جهاز كمبيوتر، حتى تمكنت والدته من شراء جهاز خاص به، ما

أجبرهما على الانتقال إلى منزل ذي إيجار أرخص لادخار المال. ومن هنا، بدأت علاقة أسانج بالكمبيوتر، حيث بدأ بتفكيك «شيفرات» (رموز) بعض البرامج واستمتع بحل ألغازها. وفي سن السادسة عشرة اشترى أول جهاز كمبيوتر محمول له وأول «مودم». لم يكن الإنترنت قد انتشر عالمياً بعد، ولم تكن الشبكة العنكبوتية قد مدت خيوطها كفاية، لكن أسانج وجد في الشبكة الداخلية التي تصل أجهزة الكمبيوتر بعضها ببعض والبرامج وشبكة الاتصالات عالماً من السرية والمتعة، عمل على فك رموزه واختراق أسرار «لمجرد حل الألغاز».

«مانداكس» كان الاسم المستعار الأول الذي أطلقه جولييان على نفسه للتخفي، ثم ما لبث أن انضم إلى «قرصانيين» آخرين وألفوا شبكة بإمكانها اختراق أكثر الأنظمة سرية في أستراليا وأوروبا والولايات المتحدة حينها.

«مانداكس» كان الاسم المستعار الأول الذي أطلقه جولييان على نفسه للتخفي

وفي أحد الأيام، داهمت الشرطة الأسترالية منزل أسانج وصادرت جهاز الكمبيوتر. واتهم بسرقة أموال

من أحد المصارف، لكنه لم يحاكم. الشاب، الذي ساهم في أحد الكتب المنشورة عن «القرصنة» بوضع «شرعة أخلاق» للعمل (مثل عدم تخريب محتوى البرنامج وعدم العبث بمحتويات الأجهزة المخروقة...)، تابع عمليات الاختراق وطورها حتى حوكم بـ 25 قضية اختراق سرية وغيرها، بدفع غرامات مالية.

مراهقة أسانج كانت حافلة وانتهدت بزواج مبكر وطفل وانفصال... وفي العشرينيات بدأ مسلسل جديد من المتاعب.

«توم سويار» الطفل تحول في شبابه إلى «روبين هود»، وبدل أن يسرق أسانج أموال الأغنياء ويوزعها على الفقراء، قام بـ «سرقة» أسرار الحكومات ووزعها على الشعوب.

يصف الصحافي رافي خاتشادوريان، في مقال له في مجلة «نيويورك» طريقة نضج أسانج وتفكيره بالآتي: «أدرك جولييان أن الصراع البشري لا يتمثل باليسار واليمين، ولا بالإيمان ضد العلمانية بل بصراع الفرد مع المؤسسات». بنظره «التراتبية المؤسساتية تشوه الحب، والإبداع، والحقيقة والعاطفة». أسانج بدأ يرسم صورة للعلاقة القائمة بين الأنظمة والمؤسسات والشعب. وهو مقتنع بأن المؤسسات (مثل الحكومات) تخفي الكثير عن شعوبها، ما يجعلها متآمرة عليه. لذا يجب إعلان الحرب على هذه المؤامرات. والتسريبات هي سلاح الشعوب لوضع حد للتآمر عليه.

في بداية عشرينياته، كان أسانج يواجه سلسلة من المحاكمات في بلده الأم وقد بدأ (أو عاد) للعيش متنقلاً وهارباً، حيث بات ليالي عدة في أحد مقنرات ملبورن. وبعد انتهاء كابوس المحاكمات، والتوصل إلى اتفاق مع زوجته السابقة بشأن رعاية ولده، ودع جولييان والدته وانطلق في رحلة على دراجة نارية بجوب أرجاء فينخام. شغل أسانج وظائف عدة لإعالة ابنه، وللمفارقة، عمل مستشاراً لشؤون حماية الأنظمة الإلكترونية من الاختراق.

لكن بالأسانج كان لا يزال مشغولاً في جوهر الصراع الذي يريد خوضه، صراع القضاء على تآمر الأنظمة الحاكمة ضد الشعوب.

من هنا جاءت فكرة إنشاء مدونة تخدم مبادئ أسانج وتصلح لتكون سلاحاً في الحرب الإلكترونية التي سيشنها. انكب جولييان عام 2006 على العمل لإطلاق موقعه الإلكتروني، كان يصل الليل بالنهار، لا يأكل ولا يرتاح. حتى نجح في إنشائه وتسويقه وإطلاقه على شبكة الإنترنت... فكان موقع «ويكيليكس». وفي شهر كانون الأول 2006 تلقى «ويكيليكس» أول اتصال خارجي وأول وثيقة مسربة عنوانها «قرار سري» مصدرها الصومال، وهي تتضمن نص الدعوة والتحضير لقتل أعضاء من الحكومة الصومالية على أيدي لائحة من القاتلين المأجورين. ومن هنا بدأت الحكاية...

الصومال: الحكومة طالبت بتدخل أميركي

ووفقاً للوثيقة، فإن المحادثات مع المسؤولين الصوماليين، إلى جانب التقارير، تشير إلى وجود عدد غير معروف من المقاتلين من جنوب آسيا والشرق الأوسط، من باكستانيين وبنين، وجنسيات عربية أخرى. إلا إن الدبلوماسيين الأميركيين أبدوا تشككهم في الأعداد التي يقدمها المسؤولون الصوماليون. وجاء في الوثيقة أن «تصريحات المسؤولين في الحكومة الصومالية عن وجود عدة آلاف من الأجانب مبالغ فيها، أو أنها في أحسن الأحوال مبنية على تقديرات

الحكومة الانتقالية ضخمت أعداد المقاتلين الأجانب في صفوف المعارضة

مشاهدات المقاتلين والشائعات». وعندما تحدثت الوثيقة عن الحملة الإعلامية التي أطلقها تنظيم «القاعدة» للمشاركة في القتال في الصومال، أوضحت أن ثمة «أدلة ضعيفة تؤكد حصول دعم مباشر من «القاعدة» في المجال المالي أو العسكري مصدره العراق أو أفغانستان». في المقابل، لفتت الوثيقة إلى أن الدعم الرئيسي للمقاتلين يأتي من طرف مجموعة متنوعة من المصادر، ومن خلال قنوات بينها إريتريا وتحولات المغتربين والتهريب من اليمن، وعدد من المانحين في دول الخليج. وفي السياق، تحدثت الوثيقة عن سعي مسؤولي أجهزة الأمن الكينية إلى مواجهة خطر الإرهاب

في بلادهم، وسط معلومات عن إيصال الدعم عبر كينيا إلى حركة الشباب الصومالية. وأشارت إلى مخاوف من شن الحركة هجمات عبر الحدود المشتركة بين البلدين.

بالعودة إلى وثيقة 28 أيار 2009، وبعدما شكر شارماركي الولايات المتحدة على تزويدها قوات الحكومة الانتقالية ذخائر وأسلحة، طالبها بالدعم للحصول على تقنيات أفضل.

كما طالب الولايات المتحدة وممثل الأمم المتحدة بالتدخل لدى العراق للإيفاء بتعهد تقديم خمسة ملايين دولار للحكومة الانتقالية.

وكشفت الوثيقة أن شارماركي تشاطر الرأي مع الرئيس الصومالي بضرورة الاستعانة بالأميركيين، لتوجيه ضربات إلى المقاتلين المناوئين للحكومة ومعسكرات تدريبهم.

وعندما سئل شارماركي عما إذا كانت الحكومة الانتقالية قادرة على تجاوز تداعيات الضربات والأضرار المحتملة المصاحبة لها، قال «نعم من دون تردد. هؤلاء الناس يسعون إلى تدمير طريقة حياتنا».

أخيراً، تحدثت وثيقة تعود إلى عام 2008 عن النتائج الإيجابية المتوقعة لقتل القيادي البارز في حركة الشباب، عدن حاشي ابرو، ومن بينها انقطاع قصير الأجل لعمليات حركة الشباب، وانتكاسة جهود المصالحة بين حركة الشباب وميليشيا المحاكم الإسلامية، وربما تحسين آفاق المصالحة الصومالية، إلى جانب إطلاق صراع على الزعامة من أجل السيطرة على حركة الشباب.